محمد حليم *

صراع على قلب اللّد

«أريئيل شارون فتح الخارطة
وقال «أريدكم هنا».[1]

«شُفنا المحل، مرقنا جنبه وكان عتمه ومكسّر...
قلتلهم إنه أنا بدّي المحل وأنا بدّي أرمّمه».[2]

تتصل فكرة هذه الورقة الممكن استشفافها مما ذُكر أعلاه بأن ظاهرة استيطان «النواة التوراتية» في المدن الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨ هي تجلٍّ من تجلّيات الصراع المسّتمر على مكان هذه المدن وزمانها بين السلّطة الإسرائيليّة وسكّانها الفلسطينيّين، وبأنه من الخطأ أن تُدْرس هذه الظاهرة كأداة استعمارية بمنعزل عمّا يقوم به الفلسطيني من فعل ضمن هذا الصراع. لذلك فإن هذه الورقة لا تهدف إلى رصد الأساليب الخطابية والإجرائية الخاصة باستيطان هذه المجموعة في مدينة اللد، إنما إلى تقديم قراءة أخرى له من خلال رصد الصراع الراهن على الحيّز بين فلسطينيي المدينة والسلطات الإسرائيلية المتمثّلة بهذه المجموعة الاستيطانيّة. مما لا شك فيه أن تسليط الضوء على تمظّهر هذا الصراع في مدينة اللّد يساهم في توسيع فهمنا لهذه الظاهرة الاستيطانيّة وللتنوّع في أدوات محاولات التهويد الخاصّة بها وسيروراتها وبسياسات الاستيطان الإسرائيليّة عامّة. لكن الأهم هنا هو فهمنا للعلاقة بين هذا التنوّع في أدوات الاستيطان وأشكاله والفعل الفلسطيني في هذه الحقبة وهذا السياق. وعليه فإنه بناءً على هذه المقاربة لا يمكن النظر لهذا النمط من الاستيطان وغيره إلّا كجزء من الصراع القومي التاريخي في فلسطين، وليس كما حصل في دراسات أخرى لا سيما تلك التي أشارت إلى البُعد القومي لكنها قامت بتحليله بشكل موضِعي وتسميته ضمن ظاهرة الاستطباق[3] (Gentrification).

* طالب دكتوراه في جامعة بئر السبع.

تقوم الورقة على فرضية مفادها أن وجود هذا الحيّز العيَني المتصارع عليه وما طرأ عليه من تغييرات ديمغرافية وأخرى خلال العقود الأخيرة، يقف كعامل مركزي مسبب لهذا الصراع القومي في المدينة ويفسّر، إلى جانب أسباب أخرى، حدته وشكله وربما اختلافه عن باقي تجليات الصراع في المدن الأخرى.

المشروع الاستيطاني في اللد هو الأكبر من بين مشاريع «النواة التوراتية» الأخرى، وهو مكوّن من ست بؤر موزّعة على أنحاء المدينة، تُفعّل كل واحدة منها إجرائياً مجموعة مستوطنين معيّنة. اثنتان من هذه البؤر تم تفعيلها في المنطقة التي كانت عليها بلدة اللد قبل احتلالها عام ١٩٤٨، والتي تُعد اليوم من الناحية الديمغرافية والوعييّة «منطقة عربية». تتمحور هذه الورقة بشكل خاص حول قراءة الصراع بين الطرفين، فلسطينيي المدينة والسلطات وأذرعها الاستيطانية، على هذه المنطقة بالتحديد. ولا تتعامل مع صراعات أخرى نابعة من هذا الاستيطان كتلك القائمة بين المستوطنين الجدد وسكان المدينة اليهود الذين يخشون هيمنة الجدد من الناحية الثقافية والاقتصادية.[٤] وتقوم الورقة على فرضية مفادها أن وجود هذا الحيّز العيَني المتصارع عليه وما طرأ عليه من تغييرات ديمغرافية وأخرى خلال العقود الأخيرة، يقف كعامل مركزي مسبب لهذا الصراع القومي في المدينة ويفسّر، إلى جانب أسباب أخرى، حدته وشكله وربما اختلافه عن باقي تجليات الصراع في المدن الأخرى.

ازداد الاهتمام في دراسة هذا الاستيطان في المدن الفلسطينية على أثر المواجهات العنيفة التي شهدتها بين سكانها الفلسطينيين واليهود تزامنًا مع العدوان على غزة ومواجهات القدس، فيما صار يعرف بهبة أيار ٢٠٢١. تميزّت المواجهات في اللد خلال هذه الهبة من ناحية

جامع دهمش.. مثل ناجٍ وحيد من المجزرة وسط اللد، جنبًا إلى جنب لافتة بالعبرية تعيد تسمية المكان بـ«ميدان البلماح».

ممكن اعتبار هاتين اللحظتين اللتين أشار فيهما كل من شارون والصحّ على حِدة إلى الأماكن التي سيُقام عليها مشروعاهما، كلحظتين يبدأ فيهما ما يمكن وصفه بسيرورة قراءة - كتابة على حيّز قلب المدينة المنكوبة. لكن مقابل قراءة رجل الاستيطان الأيديولوجية الصرفة للحيّز على أنه ينقصه التهويد، كانت قراءة الصّح وهو ينظر إلى أثر ما خلفه الاحتلال والإهمال المتواصلان تخلو من أي جوانب أيديولوجية.

حدة الاحتجاج الفلسطيني، وما قوبل به من بطش قاده مستوطنو النواة التوراتية بدعم من المؤسسة العسكرية ومجموعات أخرى عنصرية لمستوطنين جاءوا من خارج المدينة. في محاولة لفهم لماذا تميّزت اللد خلال هبة أيّار، نُشرت العديد من التحليلات التي رأت بأن فرادة السياسات الاستعمارية في مدينة اللد منذ احتلالها - من حيث كثافتها وشراستها وتأثيرها الفتّاك على مناحي حياة سكانها الفلسطينيين - هي ما يقف وراء ردة فعلهم الغاضبة.[٥] لكن سؤالاً أساسيّاً آخر لم يطرح للنقاش، وهو سؤال: ما الذي يدفع بالسلطة أصلًا إلى استهداف اللد بشكل خاص، وتفعيل الحركة الاستيطانية المتطرفة فيها على نحو لا تعرفه باقي المدن الفلسطينية المحتلة، خاصة أن اللد ليست مركز جذب اقتصاديًا أو أيديولوجيًا، إذن لا بد أن هناك أمرًا متميزًا آخر يحدث في اللد يجعلها عرضة لهذه الهجمة الاستيطانية.

تعتمد محاولتي قراءة هذا الصراع العيّني والإجابة على هذه التساؤلات أساسا على معرفتي لجوانب المدينة الاجتماعية والسياسية التي تعمّقت خلال عملي كباحث أحاول فهم شكل عمل الرجال والرجولة الفلسطينية فيها. من خلال دراستي الإثوغرافية للحياة اليومية لرجال المدينة الفلسطينيين في مقهى الأراجيل الذي يديره محسن الصح، اتضحت فيما اتضحت من جوانب، التحوّلات التي طرأت على المكان والزمان الاستعماري في المدينة وخاصة في قلبها حيث يقبع المقهى، وأشكال الصراع عليه وتجلياته بين السلطة وسكانها الفلسطينيين. على وجه الخصوص تبيّن أن هناك تغييرات على مستوى المادة والوعي لصالح السكّان الفلسطينيّين حدثت خلال العقود الثلاثة الأخيرة على هذا الحيّز وصلت إلى حد 'استعادة' مكانه وزمانه من قبل فلسطينيي المدينة، مما أدّى بالمجموعة الاستيطانية إلى تكريس قدر كبير من مساعيها ومواردها من أجل لجم هذه التغييرات واستعادة السيطرة على هذه المنطقة المشتهاة لكلا طرفي الصراع لما فيها من رمزيّة تجسد من ناحية تاريخًا جمعيًا فلسطينيًا ومن ناحية أخرى الدالة على نجاح الحركة الصهيونية في احتلال المدينة الفلسطينية وإخضاعها.

لا يمكن معرفة الموعد الدقيق الذي أشار فيه أريئيل شارون لتلك النقطة على الخارطة التي سيُقام فيها المجمع الاستيطاني «رمات الياشيف»، لكن كما تُبيّن المعلومات المتوفرة في الصحف فإن جمعية «كريات الياشيف» التابعة للنواة التوراتية فازت بمناقصة وزارة الإسكان لبناء المجمّع عام ٢٠٠٤؛ أي في السنة نفسها التي كان محسن الصح يتجوّل فيها بين ركام بلدته باحثًا عن مقر للمقهى الذي أراد إنشاءه، ليقع اختياره على الموقع الذي سينشط فيه مقهاه على مدار عشر سنين.[٦] ممكن اعتبار هاتين اللحظتين اللتين أشار فيهما كل من شارون والصحّ على حِدة إلى الأماكن التي سيُقام عليها مشروعاهما، كلحظتين يبدأ فيهما ما يمكن وصفه بسيرورة قراءة - كتابة على حيّز قلب المدينة المنكوبة. لكن مقابل قراءة رجل الاستيطان الأيديولوجية الصرفة للحيّز على أنه ينقصه التهويد، كانت قراءة الصّح وهو ينظر إلى أثر ما خلفه الاحتلال والإهمال المتواصلان تخلو من أي جوانب أيديولوجية «كنت أعرف تمامًا أين سيكون المقهى. فقط هنا {قلب المدينة} وليس في أي مكان آخر. أردت مكانًا فيه ساحة كبيرة».

حَدَثا القراءة - الكتابة هذان على الحيّز هما جزء من حدث أكبر لمحاولات تصميم وهندسة متكررة ومتعاقبة لحيّز قلب المدينة المحتلة من قبل طرفيّ الصراع المتواصل منذ العام ١٩٤٨. بالتحديد، يمثل هذان الحدثان الصراع الآني على مكان البلدة الفلسطينية وزمانها، محور هذه الورقة التي تستوجب مقاربتها النظر إليه على أنه فصل من فصول قصة صراع تاريخي مستمر. في هذا السياق، يمكن سرد قصة الصراع على الحيّز ووصفها وما أحدثه

مـن تغيـرات عليـه مـن خـلال تقسـيمه لفصلـيّن/ مرحلتـين زمنيتـين: الأول منـذ العـام ٤٨ حتـى التسـعينيات- احتـلال البلـدة والسـيطرة اليهوديـة عليهـا ديمغرافيًـا وثقافيًـا؛ الثانـي مـن التسـعينيات حتـى يومنـا هـذا- اسـتعادة البلـدة ديمغرافيًـا وثقافيًـا مـن قبـل أهلهـا الفلسـطينيين تقابـل بمحـاولات إعـادة السـيادة اليهوديـة عليهـا بواسـطة المجموعـة الاسـتيطانية «النـواة التوراتيـة».

الفصل الأول للصراع- احتلال المدينة وتهويدها[٧]

قصـة اللـد هـي قصـة المجتمـع الفلسـطيني عامـة لا سـيما مدنـه التـي أُحتلـت عـام ١٩٤٨ وتمـت السـيطرة عليهـا مـن قبـل الدولـة الجديـدة التـي أنشـئت بوسـائل كولونياليـة اسـتيطانية. مـع ذلـك، يبـدو أن لنكبـة اللـد ميّـزات خاصـة جعلتهـا تحظـى باهتمـام بحثـي وشـعبي أكثـر مـن أي مدينـة منكوبـة أخـرى. الأحـداث التـي أدت إلى قتـل سـكان المدينـة وطردهـم تُعـد مـن بـين أصعـب الأحـداث في تاريـخ النكبـة والقضيـة الأكثـر إثـارة للجـدل وللاهتمـام في صفـوف المؤرخين الإسرائيليـين. في النكبـة دُمـرت مدينـة اللـد وطُـرد منهـا أغلبية سـكانها الذيـن كان تعدادهـم آنـذاك قبـل دخـول القـوات الصهيونيـة إليهـا ٤٠٠٠٠ مـن بينهـم لاجئـون فلسـطينيون كانـوا قـد وجـدو فيهـا ملجـأ بعـد تدمـير قراهـم القريبـة مـن المدينـة وطردهـم منهـا. في اليـوم الثالـث لاحتلالهـا كان عـدد مـن تبقـى في اللـد قرابـة ألـف فلسـطيني فقـط.

بعـد احتلالهـا والسـيطرة عليهـا بالكامـل، وعـلى مـدار سـنين طويلـة، قامـت السـلطات الإسرائيليـة بهـدم ممنهـج لمـا تبقـى مـن المبانـي التـي شـكلت المدينـة الفلسـطينية حتـى العـام ١٩٤٨. فالمدينـة القديمـة المكتظـة التـي كانـت المدينـةَ كلهـا حتـى العـام ١٩١٧ مُحيـت بالكامـل خـلال العقـد الأول للاحتـلال، ولـم يسـلم منهـا غـير بعـض المبانـي الآيلـة للسـقوط التـي امتنعـت السـلطات عـن هدمهـا بعـد أن صنفتهـا مبانـيَ أثريـة مثـل: المصبنـة والمعـصرة وخـان الحلـو، إضافـة إلى المسـجد العُمـري وكنيسـة الخـضر اللذيـن صـارا جـزءًا مـن المنطقـة التـي حُـصر فيهـا مـن تبقـى في المدينـة مـن فلسـطينيين وباتـت تعـرف بـ»غيتـو السـكْنة» لغايـة انتهـاء الحكـم العسـكري في اللـد الـذي طـال سـنة واحـدة خلافًـا لمعظـم المناطـق المحتلـة الأخـرى التـي انتهـى فيهـا عـام ١٩٦٦. بعـد أن أكملـت تسـويتها بـالأرض، أنشـأت السـلطات في السـتينيات حيًـا سـكنيًا حديثًـا عـلى الجـزء الشرقـي مـن المدينـة لصالـح المسـتوطنين اليهـود أطلـق عليـه حـي «رمـات أشـكول»، بينمـا أبقـت عـلى الجـزء الغربـي مـن المدينـة منطقـةً مفتوحـةً كبـيرةً تُسـتعمل موقعًـا للسـوق الأسـبوعي المتنقـل ومحطـة حافـلات. أمّـا مـا بقـي مـن مدينـة مـا قبـل النكبـة فهـو عـشرات المتاجـر وبعـض بيـوت سـكنية بنيـت إبـان الانتـداب البريطانـي، لكـن حتـى هـذا الحـي جـاءت آلـة الهـدم عـلى معظمـه، ويقتـصر اليـوم عـلى ثلاثـة شـوارع مركزيـة تجاريـة، وميـدان أمـام جامـع دهمـش أُطلـق عليـه فيمـا بعـد «ميـدان البلمـاح» عـلى اسـم وحـدة الجيـش التـي احتلـت المدينـة. يُطلـق عـلى هـذه المنطقـة بلسـان البعـض حتـى اليـوم «اللـد الانتدابيـة»، أمّـا مـن يأتـي إليهـا مـن الأحيـاء العربيـة الأربعـة التـي تطـوّرت وتوسّـعت حولهـا فهـي «اللـد» أو «البلـد» أو «البلـد القديمـة» نظـرًا لأنهـا أقـدم مـا بقـي.

لعـل أهـم وأشـمل دراسـة عـن اللـد منـذ احتلالهـا وحتـى نهايـة القـرن العشريـن هـي دراسـة حاييـم يعقوبـي (٢٠٠٣) «إثنوقراطيـة مدينيـة: بنـاء مدينـة وتشـكيل هويـات: حالـة اللـد»، وكان أهـم اسـتنتاجاته المتعلقـة بموضـوع ورقتـي هـذه هـو أن الحيـاة اليوميّـة في اللـد، كمـا في باقـي المـدن الاسـتعمارية السـاحلية المسـماة «مدنًـا مختلطـة»، تعمـل وفقًـا للمنطـق الإثنـي للحيـز، والـذي يهـدف إلى الحفـاظ عـلى السـيطرة الديمغرافيـة، والثقافيـة، والوعيّيـة مـن قبـل الأغلبيـة اليهوديـة. بينـت هـذه الدراسـة أيضًـا بأنـه في اللـد عـلى وجـه الخصـوص لا يمكـن الحديـث عـن اختـلاط حقيقـي بـين المسـتوطنين اليهـود والفلسـطينيين، فالأغلبيـة السـاحقة في كل مجموعـة تسـكن أحيـاء منفصلـة، الجنوبيـة معظمهـا يهوديـة والشـمالية معظمهـا فلسـطينية. بالنسـبة لقلـب المدينـة الـذي يسـميه يعقوبـي «نـواة المدينـة القديمـة» فقـد تـم وُصـف - اسـتناداً لوثائـق السـلطة المحليـة، ومقابـلات - كمنطقـة مختلطـة يعيـش فيهـا اليهـود والعـرب ويعملـون سـوية بينمـا كانـت معظـم المصالـح التجاريـة بأيـدي اليهـود، بـل وكمنطقـة تحولـت مـع السـنين إلى «فـراغ وحطـام». يقـول يعقوبـي: «حتـى بعـد هـدم المشـهد الأصلانـي، مـن يـزور المدينـة اليـوم لا يمكنـه تجاهـل المشـهد المدينـي الجريـح الـذي يـدل عـلى مـاضٍ آخـر. الرغبـة في مـلء الفضـاء الفـارغ الـذي تشـكل نتيجـة هـدم النسـيج المدينـي السـابق لا تتحقـق، وهكـذا يرمـز الفـراغ إلى الـصراع عـلى الجغرافيـا... لكـن عـلى الرغـم مـن قـوة هـذه العمليـات، فيبـدو أن باسـتطاعتي هنـا أيضًـا أن أشـير إلى نتـاج مضـاد يظهـر في اللـد؛ بينمـا يسـتمر مشـهد المدينـة الفلسـطينية في الاختفـاء، يجـري بنـاء طبقـة جديـدة تخلـق في اللـد مشـهدًا مدينيًـا عربيًـا آخـر. في مـكان

آخـر مـن دراسـته يوضـح يعقوبـي بـأن هـذا المشـهد العربـي الآخـر قـد تطـور مـن خـلال الأحيـاء العربيـة المحيطـة بقلـب المدينـة، ولا يشـير بتاتًـا إلى التغيـيرات التـي كانـت قـد بـدأت تجـري في قلـب المدينة وفقًـا لمـا وجدتـه في دراسـتي عنـه.

الفصل الثاني للصراع - الاستعادة الفلسطينية لحيّز المدينة الفلسطينية ومحاولات السلطات تهويده من جديد

في قلـب المدينـة، اتخـذتُ بـين الأعـوام ٢٠١٥ و٢٠١٧ مـن أحـد مقاهـي الأرجيلـة الفلسـطينية «مقهـى محسـن الصـح» حقـلًا أثنوجرافيًـا لدراسـتي عـن حياة الرجـال الفلسـطينيين في المدينة. مـن خـلال معايشـتي لرجـال اللـد في المقهـى وتعلّمـي تاريـخ نشـأته وحياتـه اليوميـة في هـذه المنطقـة تحديـدًا، أدركـتُ أن هـذا المقهـى جـزء مـن مشـهد ثقـافي وتجـاري مدينـيّ فلسـطيني جديـد، ابتـدأ في النمـو في السـنوات الأخـيرة مـن القـرن العشريـن في البلـدة الفلسـطينية التـي كانـت منـذ احتـلال المدينـة ولعقـود بأيـدٍ يهوديـة، وباتـت بفعـل هـذا المشـهد تُعـرف منطقـةً عربيـة، وأن مشـاريع اسـتيطانية جديـدة تعمـل عـلى تحويلـه مـن جديـد الى «منطقـة يهوديـة».

الإنجاز الفلسطيني في قلب المدينة

شـكّل المقهـى ودراسـته نافـذة بالغـة الأهميـة لاستكشـاف التغيـيرات التـي جـرت في قلـب المدينـة وفهمهـا. في هـذا الموقـع نمـا ونشـط مقهـى الصـح وجمهـوره عـلى مـدار عـشر سـنوات. بدايـةً كان هـذا المقهـى ثالثًـا لاثنـين حديثـي العهـد مجاوريـن، ولاحقًـا نمـا مشـهد مقاهـي الأرجيلـة حتـى وصـل عددهـا خـلال العقـد الأخـير ثمانيـة، نشـطت كلهـا دون اسـتثناء في مسـاحة قلـب المدينـة القديمـة الضيقـة. إنـه مشـهد ثقـافي متفـرّد لا تعرفـه مـدن أخـرى مـن مـدن السـاحل الفلسـطيني مـن حيـث تجمّعـه المُكثّـف هـذا، وحجمـه، وحيويتـه، واقتصـاره عـلى الرجـال الفلسـطينيين. لقـد نشـط هـذا المشـهد عـلى وجـه الخصـوص في سـاعات الليـل بعيـدًا عـن العائـلات والبيـوت السـكنية، وتـوارى عـن أنظـار الدولـة في مبـانٍ وسـاحات مغلقـة. هـذا مـا وفّـره قلـب المدينـة لهـذا المشـهد الفلسـطيني مـن أجـل ضمـان تطـوره في مدينـة اسـتعمارية ومجتمـع محافـظ. كمـا يُسـتدل مـن أقـوال الصّـح، فقـد شـكّل قلـب المدينـة أيضًـا مصـدرَ جـذب بسـبب الرمزيـة والذاكـرة التـي يحملهـا هـذا المشـهد ويحتاجهـا كمـا كل مشـهد ثقـافي آخـر. وفي المحصّلـة، ومـع سـاعات المسـاء كل يـوم، بعـد انتهـاء النشـاط التجـاري النهـاري، كان نشـاط الرجـال الفلسـطينيين يبـدأ داخـل فضـاءات مغلقـة تشـكل مشـهدًا بمثابـة مدينـة أخـرى لياليّـة داخـل مدينـة، لا تخفـى تمامًـا عـن أنظـار السـلطة المتمثّلـة بالأبـراج السـكنية الاسـتيطانية المحاذيـة، لكنهـا تنجـح في التـواري عنهـا بشـكل كبـير.

لـم يكـن محسـن الصـح وأصحـاب المقاهـي الأخـرى الوحيـدون الذيـن رأوا بقلـب المدينـة وبحـقّ المـكان الوحيـد الـذي بإمكانهـم أن يقيمـوا مصالحهـم التجاريـة فيـه، ولأسـباب كثـيرة، منهـا الرمزيـة، والاقتصاديـة والسياسـية المحليـة والعالميـة. خـلال العقـد الأخـير مـن القـرن العشريـن خلـت المنطقـة ممـا تبقـى فيهـا مـن العائـلات اليهوديـة (مـن ضمنهـا عائلـة رئيـس البلديـة الحـالي الـذي تتلمـذ في أُطـر النـواة التوراتيـة) التـي آثـرت الانتقـال جنوبـاً إلى الأحيـاء الجديـدة. كذلـك، ومـع تطـور مراكـز تجاريـة عصريّـة أخـرى في المناطـق اليهوديـة، فقـدت المنطقـة القديمـة حيويتهـا بحيـث أغلـق التجـار اليهـود، المتقدمـون في السـن بمعظمهـم، متاجرهـم التـي لـم تعـد تجنـي أرباحًـا. هـذا التحـول رافقـه إهمـال كبـيرٌ مـن قبـل السـلطات للبنـى التحتيـة، فتحوّلـت المنطقـة إلى مـا أسـماه حاييـم يعقوبـي «فـراغ وحطـام». لكـن هـذا الوضـع لـم يـدم طويـلًا وسرعـان مـا التفـت أهـل المدينـة إلى مدينتهـم وإلى فرصتهـم في إحيائهـا، فبـدأوا بمـلء هـذا الفـراغ. في العـام ١٩٩٦ نجـح أهـل اللـد في افتتاح مسـجد دهمـش بعـد أن كان مغلقًـا منـذ احتلـت الحـركات الصهيونيـة المدينـة وارتكبـت فيـه أبشـع مجازرهـا. ممـا لا شـك فيـه، فـان اسـتعادة المسـجد كانـت مـؤشرًا ونقطـة انطـلاق لعمليـة الاسـتعادة الأكـبر. فمثلمـا رُمّـم المسـجدُ بعـد أن أزيلـت آثـار الدمـاء والرصـاص عـن جدرانـه، شرعَ أهـل البلـدة في العـودة إلى المنطقـة المحيطـة بـه مسـتغلين تراجـع السـلطة فيهـا. لكـن هـذه المـرة عـادوا كأصحـاب مصالـح لا كمسـتهلكين فقـط، فقامـوا بـشراء متاجـر مـن شركات حكوميـة واسـتئجار دكاكـين عـلى وشـك الإغـلاق وترميـم سـاحات ومبـانٍ مهملـة ومهدّمـة جزئيًـا ليقيمـوا فيهـا متاجرهـم، تمامًـا كمـا فعـل محسـن الصـح في مقهـاه. هكـذا وبعـد أن كان فيـه بضعـة محـالٍ تجاريـة بأيـد فلسـطينية أصبـح قلـب البلـدة يعـجّ نهـارًا بالتجـار والمسـتهلكين الفلسـطينيين، وليـلًا بـروّاد المقاهـي وبعـض المطاعـم التـي تبقـى مفتوحـة لسـاعات متأخـرة.

عـلى الرغـم مـن أن هـذا المشـهد الفلسـطيني ينشـط في منطقـة تحـت سـيطرة الدولـة بـل ويعـود جـزء مـن مبانيهـا

أُضيفت هذه الاستعادة الفلسطينية إلى استعادة أخرى لحي «رمات أشكول» الذي بُني لصالح المهاجرين اليهود في ستينيات القرن الماضي على المساحة التي كانت عليها مدينة اللد التاريخية قبل أن تتوسع إلى الغرب خلال فترة الانتداب البريطاني، والذي تحول خلال التسعينيات هو الآخر لمنطقة عربية نتيجة دخول العائلات الفلسطينية إلى الشقق السكنية التي خلت تدريجيًا من عائلات المستوطنين بعد انتقالهم إلى أحياء أفضل جنوب المدينة.

وأراضيها إلى شركات حكومية، فقد غدا قلب المدينة يُعرف ويسمى حتى بلسان المستوطنين «منطقة عربية». عاد قلب المدينة ليكون فلسطينيًا بفعل عودة الفلسطينيين وتموضعهم فيه من جديد. تموضعٌ فعلي ومرئي وليس امتلاكًا رمزيًا فقط. كجزء من شعب سلبت السلطات الصهيونية منه بنية المكان والزمان الذي كان من الممكن أن يعزز إنتاجه المادي والاجتماعي، قام فلسطينيو اللد على الرغم من قيود الواقع الاستعماري باسترداد ملكية هذه البنية بواسطة العودة والتموضع في مكان وزمان قلب المدينة الذي كان قبل احتلال المدينة جزءًا من هذه البنية وركيزة اقتصادية واجتماعية. مما لا شك فيه أن هذا النمو لمركز تجاري ليس حصرًا على اللد، بل يمكن القول إنه يمثّل ظاهرةً أخذت بالانتشار في المدن والبلدات الفلسطينية خلال العقدين الأخيرين على أثر تحولات اقتصادية محلية وعالمية. وليست هذه الاستعادة الفلسطينية الوحيدة للحيز في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ والمشروع الفلسطيني في حيفا هو خير دليل على ذلك، والذي اعتمد أيضًا- كما المشروع اللدّاوي اعتمد - على هجرة الفلسطينيين إلى المدينة لتعزيز الوجود والتطور فيها. لكن المشروع اللداوي الذي أُنجز دون أن تلتفت إليه الأبصار، هو مشروع متميز باسترداده الفعلي للمنطقة التي سُلبت عام ١٩٤٨.

أُضيفت هذه الاستعادة الفلسطينية إلى استعادة أخرى لحي «رمات أشكول» الذي بُني لصالح المهاجرين اليهود في ستينيات القرن الماضي على المساحة التي كانت عليها مدينة اللد التاريخية قبل أن تتوسع إلى الغرب خلال فترة الانتداب البريطاني، والذي تحول خلال التسعينيات هو الآخر لمنطقة عربية نتيجة دخول العائلات الفلسطينية إلى الشقق السكنية التي خلت تدريجيًا من عائلات المستوطنين بعد انتقالهم إلى أحياء أفضل جنوب المدينة. بهذا تمت بشكل من الأشكال استعادة الحيز الذي كانت عليه المدينة قبل احتلالها، وصارت غالبية سكان المدينة وتجارها والناشطين فيها، ليلًا ونهارًا، من الفلسطينيين. كل هذا يُضاف، ويشكّل امتدادًا جغرافيًا، للأحياء العربية المحيطة من الشمال والغرب، «الواحة الخضراء» الذي بُني كحي عربي في السبعينيات انتقلت إليه عائلات حي المحطة. و«سامخ حيط» و«المحطة» و«شنير» التي كان معظم سكانها من العائلات التي قدمت من منطقة بئر السبع ابتداء من الستينيّات. يسكن هذه الأحياء فلسطينيون في بيوتٍ أرضيةٍ يملكونها، وتظهر كأي قرية عربية أخرى من ناحية وضوح حدودها ومعالمها، وتشبه في ذلك أحياء الجواريش والرباط في مدينة الرملة المجاورة. لكن ما يميز هذا التطور في اللد هو أن كل هذه الأحياء التي تطورت اعتمادًا أيضًا على البناء غير المرخص من قبل السلطات ورغمًا عنها، باتت تشكل مع البلدة القديمة وحي «رمات اشكول» المُستعادَيْن منطقة واسعة معظمها الساحق فلسطيني، كما لو أنها بلدة فلسطينية كبيرة تقع إلى الشمال من البلدة اليهودية التي توسعت إلى الجنوب.

عزز هذا الإنجاز في العودة الناشطة إلى منطقة رمزية تجسد تاريخًا جمعيًا فلسطينيًا التضامن الجمعي والشعور بالانتماء للمكان الذي صار بنفسه عنصرًا وسيطًا وفاعلًا في عملية التنشئة الاجتماعية الحيّزية هذه. لا شك أن هذا فعل مقاومٌ يتحدّى سياسات السلطة التي تهدف إلى قمع أي ظهور جمعي فلسطيني في المدن المحتلة عام ١٩٤٨. وهو فعلٌ يحمل معاني قومية فلسطينية ترمز إلى العودة المشتهاة والتجمع بعد الشتات. من الصعب عدم رؤية هذه المركَزة الفلسطينية لهذا المكان والزمان الذي كان جزءًا من نسيجٍ مدينيٍ فلسطيني كعودة فعلية وإن كانت محدودة ومحلية. نتيجة لذلك لم يعد بالإمكان رؤية قلب المدينة أثرًا يكون فيه الفلسطيني شبحًا كما هو الحال في المُدن التي طُهرت بالكامل من الوجود

الفلسطيني. الوجود الفلسطيني اليوم في قلب المدينة حقيقة وليس هيتروتوبياً يذكرنا فقط بفلسطين واللاجئين. وجود شاهد على فلسطين التي ما زالت حية. عودة لا تهدف إلى توثيق المنطقة وتخليدها كموقع من «مواقع الذاكرة» الفلسطينية - كما تفعل على سبيل المثال مسيرات العودة الرمزية التي يمكن القول عنها استنادًا على بيير نورا بأنها «استحضار إشكالي وغير كامل لشيء لم يعد قائمًا». إنها تجربة مُعاشة كاملة لعودة فلسطينيين لمكان وزمان غابوا عنه زمنًا طويلًا، حتى لو كان هذا الحضور المستمرّ محدودًا وخاضعًا لرقابة السلطة. حضورٌ يجسّد الماضي والحاضر الفلسطيني في الفضاء الاستعماري، ويبث في داخله رموزًا وتمثّلات ثقافيّة واضحة تشير إليه وتحدده كفلسطيني.

الغزو الاستيطاني المُستجِدّ

ضرب هذا التطور الذي فصلَ إلى حد كبير بين فلسطينيي المدينة ومستوطنيها بعرض الحائط المصطلح الاستعماري «المدينة المختلطة». قوبل هذا الامتداد الذي شكّل منطقة من الممكن رؤيتها كمدينة عربية متاخمة للمدينة اليهودية بمحاولات السلطة الحدّ منه وتقويضه من جهة الشمال بواسطة مشاريع استيطانية كبيرة أبرزها: المنطقة الصناعية والبنكيّة التي أقيمت إلى الشمال من حي الواحة الخضراء؛ والحي السكني «جاني أفيف» الذي بُني لصالح المستوطنين الروس إلى الشمال من حيّ المحطة وشنير. لكن هذا التقويض من الخارج وحده لا يمكنه أن يؤدي إلى ما تروم إليه السلطة من السيطرة من جديد على المناطق المستعادة بأيدٍ فلسطينية، إذن لا بد من إجراءات أخرى لتحقيق هذا الهدف. من المهم التأكيد أننا لا نتحدث عن الأحياء العربية التي لم تكن يوما أحياءً يهودية، والتي بُنيت كما لو أنها قرى مجاورة للمدينة يستعصي الدخول اليها، إنما نتحدث عن الأحياء التي كانت «أحياء يهودية» على مدار عشرات السنين قبل أن تُستعاد، والتي ما زال جزءٌ من أراضيها مملوكًا للسلطات الاستعمارية. كان للسلطات مخطط آخر لاستعادة هذه الأحياء بواسطة التغلغل فيها وليس تقويضها فقط. لأن التغلغل يعد أمرًا صعبًا في منطقة يعتبرها المستوطنون خطرة فقد اتجهت السلطات إلى الاستعانة بمجموعة أيديولوجية عنصرية هي «النواة التوراتية».

في دراستها «استيطان (النواة التوراتية) في بلدات الأطراف والمدن المختلطة في إسرائيل: ما بين القومية والنيوليبرالية» (٢٠٢٠) تقوم ياعيل شمارياهو بالتركيز على عمل هذه المجموعة الاستيطانية في اللد، وتخلص إلى إن الدولة توكل بشكل مباشر جهات من المجتمع المدني والقوى الاقتصادية الإسرائيلية لتنفيذ مخطّطاتها الاستيطانية في المدن الفلسطينية المحتلة عام ٤٨ لا سيما مدينة اللد.[٨] في مقابلات أجرتها مع قادة «النواة التوراتية» صرّح هؤلاء بشكل لا يقبل التأويل بأنهم يستهدفون الأحياء العربية ويعملون على استعادة السيطرة عليها:

«لن يختفي العرب، لا من اللد ولا من إسرائيل... فما نفعل نحن حاليًا؟ إننا نعيد سيادتنا على الحي، نعيد الفخر والكبرياء لليهود، هناك أعلام إسرائيل في يوم الاستقلال... الهدف هو أن نصل إلى وضع نكون فيه من يقرّر بالنسبة للميّزة الثقافية للحي، وأن تكون أجواء الشوارع يهودية»- نوعام درايفوس، أحد مؤسّسي «البؤرة التوراتية» في اللد.

«إن دفع اللد قدمًا هو واجب لا يقل أهمية عن الإقامة في نابلس» شيلو هندلر- المدير العام للنواة التوراتية (ص ١٣٦-١٣٧)

تشكلت البؤرة الاستيطانية الأولى سنة ١٩٩٦ حول مدرسة دينية أقيمت للشباب اليهود، وشملت خلال سنة ٢٠٠٠ ثلاثين أسرة. نجحت المجموعة - بمساعدة وتوجيه من البلدية وأعضاء كنيست ووزارة الإسكان وبدعم معلن من رئيس الوزراء آنذاك أريئيل شارون - في إنشاء مجمع «رمات الياشيف» في القسم الغربي من البلدة بعد تهجير عدد من العائلات الفلسطينية والبيوت التي كانت تسكنها. دخلت أولى العائلات التي كان غالبية أفرادها بالأصل مستوطنين في الضفة الغربية وغزّة إلى المجمّع الاستيطاني عام ٢٠٠٦ وبلغت مئات العائلات عام ٢٠١٦. منذ ذلك الحين لا يتوقف المشروع السكني عن التوسع، كذلك المؤسّسات التربوية والثقافية والدينية والمدارس الدينية والحدائق العامة التي خصصت لسكان المجمّع. إلى جانب الأبراج التي تطل على كل البلدة وعلى المقبرة الإسلامية المحاذية، وفي قلب البلدة، شرعت المجموعة الاستيطانية بإنعاش عدد من كنس العبادة التي هُجِرت أو لم تجد من يفد إليها عبر السنين، وقامت بجولات ومسيرات استفزازية، وافتتحت المركز الجماهيري الذي كان مغلقًا فترة طويلة واستولت عليه، كما نجحت في شراء عشرات الشقق السكنية في حي «رمات أشكول» من شركات حكومية وعائلات عربية ويهودية أيضاً ليحولوا دون بيعها للعرب، وأنشأت بمحاذاته مدرسة دينية وعسكرية. وفي

بعد مرور عشر سنوات على افتتاح محسن الصح المقهى، أبلغته البلدية بأن عليه إخلاء المبنى وتسليمه لها إذ قررت أن تبني مكانه مقرًا جديدًا لها. مرغمًا انتقل محسن ورواد مقهاه المخلصون إلى مبنىً وساحة آخرين بمحاذات ميدان جامع دهمش الذي تُطلق عليه السلطات في مفارقة قاسية «ميدان البلماح» نسبة للوحدة العسكرية التي نفذت المجزرة في الجامع خلال النكبة.

الوقت نفسه تغلغلت المجموعة جيدًا في المجلس البلدي ومؤسساته، وتبوأ زعماؤها مراتب مهمة في البلدية ممّا أدى إلى تسريع محاولات إعادة السيطرة وتكثيفها بالاستعانة بمجموعات استيطانية أخرى كـ «بني عكيفا» وجمعية «أياليم» التي أقامت قرية طلابية ومرافق تعليمية ودينية تضم عشرات الطلاب في المتنزه القريب من مجمع «رمات الياشيف»، إلى جانب تطوير أحياء وخدمات جديدة أخرى لصالح المستوطنين الجدد في مناطق أخرى بعيدة عن البلدة الفلسطينية.

قوبل هذا التطور الاستيطاني من قبل أهل البلدة الفلسطينيين بحذر كبير، كما تبين بالأساس في تقارير صحافية نشرت آنذاك، فقد حصلت خلال هذه السنين مواجهات بين المستوطنين وأهل البلدة، لكن سرعان ما كانت تخضع للسيطرة، لكنها - كما أشارت التقارير - كانت توحي بانفجار ومواجهة حتميين وأكبر حجمًا. أحد التقارير الذي استعرض الظاهرة الاستيطانية وما يقابله من غضب كان لصحيفة هآرتس عام ٢٠١٣؛ أي قبل هبة أيار بثمانية أعوام، حمل عنوان «قبضة استيطانية» دينية على أنقاض حي عربي تهدد في تفجير اللد التي تغلي».[٩]

زحققت هذه النبوءة من خلال مواجهات هبة أيار ٢٠٢١. لقد اتخذ فلسطينيو المدينة قلب مدينتهم الفلسطينية المُستعاد، والمُهدّد من جديد، مسرحًا لاحتجاجهم. وقد قوبلت هذه السيطرة الفلسطينية على قلب المدينة وهذا الاحتجاج بشراسة بالأساس من قبل مستوطني النواة التوراتية المسلحين، وبدعم من المؤسسة العسكرية ومجموعات أخرى عنصرية لمستوطنين جاءوا من خارج المدينة.

لم يكن هذا الصراع لسنوات طويلة جليًا، وقد أخرجته المواجهات إلى النور، وعلى نطاق واسع. هذا باعتقادي ما يقف وراء ردة فعل السلطة الشرسة، بحيث أنها رأت في المشهد المديني الفلسطيني الجديد تهديدًا جديًا لسيطرتها، ورأت في الاحتجاج - خاصة أنه يتمركز فيه - إن لم يُقمع، اعترافًا وقبولًا بالإنجاز الفلسطيني، وهو ما لا يمكن أن تقبل به أي سلطة استعمارية. من هنا يمكن فهم حدّة المواجهات على أنها استمرار لصراع طويل بين طرفين لم يُحسم بعد، وعلى أنها ظهور جلي لمواجهة ربما قد عمد الطرفان طويلًا لعدم الجهر بها لأن ذلك كان سيشكل تهديدًا على مشروعيهما؛ الإنجاز الفلسطيني في استعادة الحيز من جهة، ومساعي السلطة الاستعمارية الجارية للسيطرة عليه مجددًا من جهة أخرى.

بعد مرور عشر سنوات على افتتاح محسن الصح المقهى، أبلغته البلدية بأن عليه إخلاء المبنى وتسليمه لها إذ قررت أن تبني مكانه مقرًا جديدًا لها. مرغمًا انتقل محسن ورواد مقهاه المخلصون إلى مبنىً وساحة آخرين بمحاذات ميدان جامع دهمش الذي تُطلق عليه السلطات في مفارقة قاسية «ميدان البلماح" نسبة للوحدة العسكرية التي نفذت المجزرة في الجامع خلال النكبة، لكن مرّة أخرى ليس قبل أن يُنظف المبنى وساحته ويرمّما. لم أكن لأجد ما يدل على الصراع على قلب المدينة أفضل من هاتين المحطتين في حياة المقهى، الأولى إعماره من بين الركام وافتتاحه الأول للجمهور، والثانية إخلاء المبنى بأمرٍ من السلطات وهدمه وتموضعه في مبنى آخر بعد ترميمه.

بعد مرور شهرين على المواجهات، افتُتح مبنى البلدية الجديد الذي أقيم على المكان نفسه الذي كان عليه المقهى، الذي يبعد أمتارًا معدودة عن مبنى المجلس البلدي الفلسطيني المسلوب والمتروك منذ العام ٤٨. دخل إلى هذا المبنى الضخم الذي يشبه القلاع والمُحاط ببيوت قلب المدينة المتواضعة، مدير عام البلدية المؤسس للنواة التوراتية وجماعته. ومنه استمر حتمًا في وضع خطط أكثر شراسة لتهويد قلب المدينة، لأنه أيضًا لا يُعقل وفقًا لمنطقهم أن تعمل البلدية وتستقبل منتفعيها من اليهود في «منطقة عربية» ربما تنتفع اقتصاديًا من ذلك. أكثر من أي مشروع استيطاني آخر، جاء مبنى البلدية الضخم هذا

ليعلـن أن لا نيّـة للسـلطات في إبقـاء الحـال في قلـب المدينـة كما هـو، وبأننـا أمـام مرحلـة جديـدة مـن التهويـد. لقـد أضيـف هـذا المبنـى النشـاز والمرتفـع إلى أبـراج «رمـات اليشـيف» السـكنية الاسـتيطانية القريبـة، ومعًـا قامـوا بتحسـين الجهـاز الرقابـي البانوبتيكونـي الاسـتعماري، ووسّـعوا حقـل رؤيتـه وباتـت دلالـة عـلى القـوة والسـيطرة.

إذا كان بالإمـكان وصـف الاسـتيطان الجديـد في الأحيـاء اليهوديـة الجنوبيـة لمدينـة اللـد كمـا في المـدن الفلسـطينية الاخـرى المحتلـة عـام ٤٨ عـلى أنـه عمليـة اسـتطباق إثنـي تدمـج فيهـا الدولـة بـين المنطقـيّن الإثنـي القومـي والاقتصـادي،[١٠] فإنـه مـن الصعـب رؤية النمـوذج الاسـتيطاني الـذي يسـتهدف المناطـق التـي كانـت عليهـا مدينـة اللـد الفلسـطينية وفقًـا للمنطـق نفسـه. هـذا الاسـتيطان كمـا يُسـتدل أيضًـا مـن القائمـين عليـه أنفسـهم هـو بالدرجـة الأولى أيديولوجـي صهيونـي كالـذي يميّـز الاسـتيطان في المـدن الفلسـطينية المحتلـة عـام ١٩٦٧ مثـل القـدس والخليـل ونابلـس، والمجموعـات الاسـتيطانية فيـه مثـل «إلعـاد» و«عطـيرت كوهانيـم». ليـس للّـد أبعـاد عقائديـة يهوديـة خاصـة كمـا هـو الحـال بالنسـبة لهـذه المـدن، لكنها اكتسـبت عنـد احتلالهـا مكانـة رمزيـة مهمـة دالـة عـلى السـيادة الإسرائيليـة وإخضـاع الفلسـطيني. لذلـك لـم تكتـف السـلطات بالحـل الأسـهل وهـو تعزيـز الأحيـاء اليهوديـة جنـوب المدينـة أو تطويـق الامتـداد الفلسـطيني فيهـا مـن الشـمال، إنما سـعت إلى التغلغـل في الأحيـاء الفلسـطينية التـي تُعـد هـي الأخـرى «مناطـق خطـرة» بالنسـبة للمسـتوطنين. تمامًـا كمـا طلـب منهـم رجـل الاسـتيطان الأول أريئيـل شـارون الـذي طالمـا قـال إن «احتـلال الأرض لا يكفـي لفـرض السـيادة الإسرائيليـة عـلى فلسـطين بـل إن الحضـور اليهـودي الفعـلي عـلى الأرض هـو الضامـن لذلـك، وبـأن «التـوازن الديمغـرافي الإيجابـي لا يمنحنـا السـيطرة عـلى الأرض. يجـب بغيـة السـيطرة عـلى الأرض الإقامـة في العديـد مـن المناطـق كمـا فعلنـا في الجليـل بشـأن المراصـد هنـاك». إذن فإنـه مقابـل أشـكال اسـتيطان حاليـة أخـرى في مناطـق أخـرى، يهـدف ذلـك الـذي يسـتهدف بلـدة اللـد الفلسـطينية عـلى وجـه الخصـوص إلى السـيطرة على الأرض وعـلى الحيّـز ذي المكانـة الرمزيـة المهمـة.

الخاتمة الخلاصة

رصـدت هـذه الورقـة الـصراع الراهـن عـلى الحيّـز الـذي كانـت عليـه مدينـة اللـد قبـل احتلالهـا عـام ١٩٤٨ بـين سـكّان المدينـة الفلسـطينيّين والسـلّطة الإسرائيليّـة المتمثلـة بأحـد أذرعهـا الاسـتيطانية «النـواة التوراتيـة». تفيـد قصـة هـذا الـصراع التـي أضـاءت عليهـا قصـة مقهـى الرجـال الفلسـطينيين أن تغيـرات حدثـت عـلى مسـتوى المـادة والوعـي لصالـح السـكّان الفلسـطينيّين لأسـباب عـدة وخـلال العقـود الثلاثـة الأخـيرة عـلى هـذا الحيّـز، وصلـت إلى حـد 'اسـتعادة' مكانـه وزمانـه مـن قبـل فلسـطينيي المدينـة، وأن هـذه التغيـرات أدت بالدولـة عـبر المجموعـة الاسـتيطانية إلى تكريس قـدر كبـير مـن مسـاعيها ومواردهـا مـن أجـل لجـم هـذه التغيـرات، واسـتعادة السـيطرة عـلى هـذه المنطقـة المشـتهاة لـكلا طـرفي الـصراع، لمـا فيهـا مـن رمزيّـة تجسـد مـن ناحيـة تاريخًـا جمعيًـا فلسـطينيًا، ومـن ناحيـة أخـرى الدالـة عـلى نجـاح الحركـة الصهيونيـة في إخضـاع المدينـة والسـيادة عليهـا. يُفسـر هـذا التطـوّر في الـصراع المسـتمر عـلى الحيّـز المدينـي في اللـد تميّـز المواجهـات التـي شـهدتها اللـد خـلال هبـة أيـار ٢٠٢١ مـن ناحيـة حدتهـا. فـكل طـرف حـرص أن تكـون صـورة «النـصر» مـن نصيبـه، وليـس مـن نصيـب الطـرف الآخـر، خشـية أن يـؤدي ذلـك إلى توقـف مشروعـه في قلـب المدينـة أو تراجعـه. على وجـه الخصـوص، رأت السـلطات في المشـهد الفلسـطيني الجديـد في هـذا الحيّـز تهديـدًا جديًـا لسـيطرتها، ورأت في الاحتجـاج - خاصـة أنـه يتمركـز فيـه- إن لـم يُقمـع، اعترافًـا وقبـولًا بالإنجـاز الفلسـطيني، وهـو مـا لا يمكـن أن تقبـل بـه السـلطة الاسـتعمارية.

يأتـي شـكل الاسـتيطان المطـروح هنـا كمثـال لنمـوذج الاسـتيطان النابـع مـن الأيديولوجيـا والممارسـة الصهيونيـة والرامـي إلى السـيطرة عـلى الحيّـز المكانـي لمراكـز المـدن المحتلـة ودحـض وجـود الفلسـطيني فيـه لا سـيما المـدن التـي أُحتلـت عـام ١٩٤٨. مـن هـذه الناحيـة، وعـلى الرغـم مـن اختـلاف الحيثيـات السياسـية والاجتماعيـة، فممكـن الافـتراض أن هـذه الديناميكيـة في اللـد قـد تشـبه إلى حـد كبـير تلـك التـي تميّـز المدينـة الفلسـطينية التاريخيـة الأخـرى الوحيـدة التـي بقـي أهلهـا الفلسـطينيون يشـكلون الأغلبيـة فيهـا، وهـي عـكّا. جعـل الاسـترداد الفلسـطيني لقلـب مدينـة اللـد الوضـع فيهـا مشـابهًا للوضـع في مدينـة عـكا القديمـة مـن ناحيـة أنهـا تحـت أيـد فلسـطينية وتحـاول السـلطة الاسـتيلاء عليهـا عـبر مشـاريع اسـتيطانية. قلـب اللـد المُسـتعاد ليـس تاريخيًـا ولا مشـتهى مـن الناحيتـين النفسـية والاقتصاديـة مثـل عـكّا القديمـة، فكلاهمـا يُعـدّان اليـوم «مناطـق عربيـة» تواجـه التهويـد. أكثـر مـن مـدن السـاحل الأخـرى، يجسـد الـصراع المسـتمرّ بـين المسـتعمِر والمسـتعمَر في كل مـن اللـد وعـكا راهنيـة النكبـة والخـوف مـن فقـدانٍ آخـر. يمكـن

القـول إن عنـصرًا مهمًّـا قـد توفـر في المدينتـين، قلّمـا يتوفـر لفلسـطينيي مـدن الأرض المحتلـة عـام ٤٨، وهـو إمكانيـة الفقـدان. فقـدان مـا اسـتُعيد في اللـد وفقـدان مـا اسـتمر فيـه البقـاء والصمـود في عـكا. هـذان الإنجـازان همـا مـا يقـف وراء الاسـتهداف الاسـتيطاني الخـاص بواسـطة النـواة التوراتيـة لكلتـا المدينتـين، وإمكانيـة فقدانهمـا تقـف وراء تميـز أحـداث أيـار الأخـيرة في كلتـا المدينتـين مـن حيـث الحـدّة.

الهوامش

١ دورون ميلتـسر، الناطـق بلسـان مجموعـة «النـواة التوراتيـة» الاسـتيطانية عـن نشـأة المجمّـع الاسـتيطاني «رمـات الياشـيف» عـام ٢٠٠٦ عـلى أنقـاض البيـوت الغربيـة لبلـدة اللـد المنكوبـة منـذ ١٩٤٨، مقابلـة صحفيـة موقـع nrg، بتاريـخ ١٤ كانـون الثانـي ٢٠١٤.

٢ محسـن الصِّـح مـن سـكان اللـد عـن نشـأة مقهـاه عـام ٢٠٠٤ في قلـب المدينـة المنكـوب عـلى بعـد عـشرات الأمتـار مـن أبـراج «رمـات الياشـيف» الاسـتيطانية، محادثـة في المقهـى بتاريـخ ٢١ حزيـران ٢٠١٥.

٣ انظـر/ي، دانيئيـل مونترسـكو، مدينـة متصدعـة، (تـل أبيـب: بابـل، ٢٠٢٠). بالإضافـة إلى شـماریاهو - يشـورون ياعيـل، ٢٠٢٠. «سياسـة اسـتيطان النـواة التوراتيـة في بلـدات الأطـراف والمـدن المختلطـة في إسرائيـل: مـا بـين القوميـة والنيوليبراليـة»، أطروحـة دكتـوراة، جامعـة بـن غوريـون في النقـب، بـئر السـبع؛ ياعيـل شـماریاهو - يشـورون، ٢٠٢١، «ازدواجيـة أخـلاق التعايـش: اسـتطباق إثنـي في المـدن المختلطـة»، تيئوريـا ووبيكـورت (نظريـة ونقـد) ٥٥. تشـير هـذه الدراسـات وأبحـاث أخـرى إلى أن دوافـع وأهدافًـا نيوليبراليـة واجتماعيـة واقتصاديـة وقوميـة تقـف سـوية وراء الاجتيـاح الاسـتيطاني للمـدن الفلسـطينية المسـتعمرة والمعرّفـة بالمـدن المختلطـة. لوصـف هـذا الشـكل مـن الاسـتيطان ضمـن أشـكال اسـتيطان أخـرى يسـتخدم مونترسـكو مصطلـح «الاسـتطباق الإثنـي»، بينمـا تسـتخدم شـماریاهو - يشـورون مصطلـح «اسـتطباق إثنـي بقيـادة الدولـة» (State-led Eth-no-Gentrification) و «اسـتطباق أيديولوجـي».

٤ المرجع السابق.

٥ عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر: رازي نابلـسي، اللـد: سـجنٌ عربـيّ في مدينـة محتلـة، (المجلـة الرقميـة «حـبر»، ١٩ أيـار ٢٠٢١)؛ بـدور حسـن، «النـواة التوراتيّـة» تُعسـكر في قلـب اللّـد، (الموقـع الرقمـي «مـتراس»، ٢٤ أيـار ٢٠٢١)

٦ نوغـا إيتـان وايلـن فرينـكل، «نبـوّة تحققـت: النـواة التوراتيـة سـتفجّر اللـد»، موقـع سـيحا ميكوميـت، بتاريـخ ٢٣ حزيـران ٢٠٢١، انظـر/ي الرابـط الآتـي: https://bit.ly/3z66sNU.

٧ لأن محـور الورقـة هـو قـراءة الوضـع الراهـن في اللـد سـأقدم عرضًـا موجـزًا بهـذا الصـدد. هنـاك دراسـات عديـدة تناولـت موضـوع احتـلال المدينـة وسياسـات الدولـة تجـاه سـكانها الفلسـطينيين والحيّـز المديني. لعـل أهـم هـذه الدراسـات وأشـملها هـي: يعقوبـي حاييـم، ٢٠٠٣ . «إثنوقراطيـة مدينيـة: بنـاء مدينـة وتشـكيل هويـات: حالـة اللـد»، أطروحـة دكتـوراه، جامعـة بـن غوريـون في النقـب، بـئر السـبع.

٨ شـماریاهو- يشـورون ياعيـل، ٢٠٢٠. «سياسـة اسـتيطان النـواة التوراتيـة في بلـدات الأطـراف والمـدن المختلطـة في إسرائيـل: مـا بـين القوميـة والنيوليبراليـة»، مصـدر سـابق. كذلـك ممكـن الاطـلاع عـلى مراجعـة لأطروحـة الدكتـوراة شـماریاهو - يشـورون: نبيـه بشـير «قضايـا إسرائيليـة» عـدد ٨٣.

٩ جدعـون ليفـي واليـك ليبـاك، «قبضـة اسـتيطانية دينيـة عـلى أنقـاض حـي عربـي تهـدد في تفجـير اللـد التـي تغـلي»، هآرتـس، بتاريـخ ٧ كانـون الثانـي ٢٠١٣.

١٠ شـماریاهو - يشـورون ياعيـل، ٢٠٢٠. «سياسـة اسـتيطان النـواة التوراتيـة في بلـدات الأطـراف والمـدن المختلطـة في إسرائيـل: مـا بـين القوميـة والنيوليبراليـة»، مصـدر سـابق.